رسائل النور أنموذج متكامل لتقديم الإسلام إلى الإنسان المعاصر

الملخص

إحسان قاسم الصالحي[1]

إن الأزمة التي يتخبط فيها الإنسان المعاصر هي أزمة إيمانية أخلاقية بالدرجة الأولى فهذا الإنسان يحترق كل يوم لأنه لا يجد جوابا عن العديد من الأسئلة التي تنبعث من أعماقه عن معنى الحياة وعن المصير. وقد استعان الباحث في تشخيص هذه الحالة على آراء مفكرين غربيين مثل المفكر النصراني تليخ الذي قرر أن المنهج العقلي والعلمي الحديث قاصر على بعث الطمأنينة في قلب المجتمع الغربي فضلا عن عالم النفس المشهور فكتور فرانكل صاحب كتاب "الإنسان ومعضلة معنى الحياة" الذي بين ان غاية الإنسان اليوم لم تعد موجهة نحو إشباع الشهوات بل صارت تتوق إلى معرفة وإدراك سر الوجود ومعنى الحياة.

ومن ثمة يتسأل الباحث عما يمكن ان يقدمه الإسلام لهذه المعضلات عارضا لآراء مفكرين بارزين أحدهما من الغرب الدكتور توران والذي حكى تجربته في البحث عن الإيمان والإسلام مبرزا الدور المميز لرسائل النور في تعريفه بالله تعالى وأما الشرقي فهو طه عبد الرحمان الذي أشار إلى مدى حاجة الغرب في اللحظة الراهنة إلى القيم الروحية والأخلاقية الخالصة المنبثقة عن الإسلام.

وقد خلص البحث إلى أن رسائل النور لها من الخصائص والمؤهلات ما يمكنها من حل هذه الأزمة الحضارية الشائكة فهي تتمتع بخطاب شمولي يستوعب المسلم وغير المسلم ويحث الناس على مشاهدة الكون والتدبر في هذا الكتاب المفتوح ويذكرهم بالآخرة بأسلوب لين ومقنع يمتزج فيه العقل بالقلب. وذلك بما أفاض الله تعالى من النور على قلب مؤلف هذه الرسائل الأستاذ النورسي ليكشف عن بصائر الناس تلك حجب المادية القاتمة والتي حالت بينهم وبين الاطمئنان القلبي والراحة النفسية.

فرسائل النور إذن تعيد للإنسان المعاصر إنسانيته وتنتشله من مستنقع الشهوات والشبهات وتهديه إلى معنى الحياة والتعرف على خالق الأرض والسماوات.

الكلمات المفتاحية: الإنسان المعاصر، رسائل النور، الخطاب الشمولي.

* * *

The Risale-i Nur: A Perfect Example of How to Present Islam to Contemporary Man

ABSTRACT

Ihsan Qasim al-Salihi

The crisis in which modern man is floundering is a crisis of moral faith in the first place, for this person burns every day because he does not find an answer to many questions that emanate from the depths of the meaning of life and about destiny. The researcher examines the opinions of certain Western thinkers, who decided that the modern mental and scientific method is limited to reassurance in the heart of Western society, as well as the famous psychologist Victor Frankel, the author of the book "Man and the dilemma of the meaning of life" who showed that the goal of man today is no longer directed at satisfying desires, but rather yearns to know and understand the mystery of existence and the meaning of life. From that point onward, the researcher turns to religion and ponders what Islam is capable of offering to resolve the issue. The researcher addresses the thoughts and opinions of salient thinkers worldwide, one of such thinkers (who lives in the West) is Dr. Turan who retold his experience of searching for answers to this modern dilemma by looking into Islam and Iman, showing the important role that the Risale-i Nur played in guiding him to the knowledge of Allah. The other one is Taha Abdul Rahman, an eastern philosopher, who stated that the western world is in need of the pure spiritual and moral values emanating from Islam. The research concluded that the Risale-i Nur has the characteristics and qualifications that is appropriate for both Muslims and non-Muslims alike. People will be urged to take a look at the universe around them and mainly reflect on this open book. They'll be reminded of the Hereafter in a comforting manner where the ideas of the mind and the emotions of the heart are perfectly blended. And that is where God Almighty has shed light on the heart of the author of these messages, Said Nursi, to reveal the people's insights that obscure the dark materialism that prevented them from a reassuring heart and attaining psychological comfort.

Risale-i Nur thus restores humanity and develops a true human being, liberated from the quagmire of desires and suspicions, and guided to the meaning of life and towards knowledge of the Creator of the earth and the heavens.

Key words: modern human, Risale-i Nur, totalitarian discourse.

* * *

مقدمة

حالة الإنسان النفسية بصفة عامة في الوقت الحاضر هي أسوأ بكثير من حالته في القرون السابقة، إذ كان بإمكانه في الماضي الرجوع إلى دينه ليجد سبيله والفرار إلى خالقه ليضمد جراحه أو يسكن حيرته. فأصبح الإنسان في هذا العصر لا يعرف كيفية رفع يديه إلى السماء، وبالتالي أمسى هاويا لا يعرف ما نهايته ومن أين يستمد قوته.

يذكر المفكر النصراني بول تليخ (Paul Tillich. 1965) في تحليله الفكر العلمي التقني والعقل الحديث، اللذين تميزت بهما "الحداثة"، فلاحظ بأن هذا العقل الأفقي، أي الفاقد للاتجاه العمودي نحو السماء، يتميز هذا العقل بتعاطيه السببية متماديا في علاقاتها اللامتناهية، من دون أن يتوقف على المعاني المنطوية في مظان انتظاماتها، لأن كل ما يهمّه هو التحكم والسيطرة والبطش والتسلط على حركة الأكوان ومعادنها، ومن دون أن يسأل -هذا العقل- لماذا هذا التحكم وما الغرض من ورائه.[2]

وينظر هذا العقل –حسب هذا المفكر الأمريكي– إلى المخلوقات من حيث هي أشياء تدخل في عبارة رياضية أو عملية حسابية، كأن العقل لم يُخلق إلاّ من أجل هذه التجريدات الجافة، وكأن الكون لم يُخلق إلا لجلب المنافع المادية وما شابهها.

إن انفراد العقل العلمي التقني الذي غلب على الحداثة بهذه الأوصاف وهذه الأفعال وانغماسه فيها بطريقة شبه كلية جعلته يفقد توازنه، لأن هذه الأوصاف جاءت على حساب أوصاف وكمالات عقلية أخرى.

ويرى "تليخ" أن السبب الأكبر وراء الأزمة الأخلاقية التي يمر بها إنسان الغرب يعود في أغلبها إلى ذلك العقل الأفقي الحسابي التحكمي الذي اندفع متماديا يركض وراء الأقمار والأجرام من دون أن يقف عند معاني ما هو بصدد الغور فيه. فمعاني الأشياء ليست في "أنفسها" بل في ما تدل عليه "بإشارتها". ومن هنا يرى هذا المفكر أن هناك علاقة وطيدة بين "أزمة المعنى" و "أزمة الأخلاق".

يأتي الإنسان فيسأل: ما معنى وجودي ووجود الكائنات التي من حولي؟ كيف أكون إنسانا في عالم يسوده الوحش والعدم والشر؟ من أين أتيت وإلى أين أنتهي؟ وما نقطة استمدادي واستنادي في تلك الحالات؟ وكيف أنجو بحياتي وأفكّ سلاسل الأسباب وحتميتها المغلقة؟ وكيف أحصل على الأمل وماذا بالأمل؟ كيف أتخلص من هذا الأسى الذي يعذبني ويأبى أن يغادرني؟ ثم لا يجد معرفة تسلي عن همومه أو تقضي على شكوكه أو تشفي غليله.[3]

وهكذا نرى كيف أصبح العقل –الذي هو نعمة إلهية– وبالاً على الإنسان، فهو يتقلب في هذه الأحوال ليس أمامه إلاّ إسكاته. وهذه هي بداية الأزمة الأخلاقية. ذلك أن إسكات العقل لن يتم إلاّ بتخديره أو تغفيله أو تزييفه وإخراجه عن فطرته.

قال هذا المفكر النصراني: "ياليت رجال الدين يضعوا تلك الأسئلة نصب أعينهم ويَدَعوا لتلك الأنينات ممراً لآذانهم حتى تطرق أسماعهم، إذ خدمة الدين في الغرب اليوم تتمحور حولها". ثم يتأسف لعدم وجود من يجتهد في البحث عن الجواب الشافي لها أو حتى الإصغاء لها.[4]

ويأتي العالم النفساني الشهير اليهودي فكتور فرانكل Viktor Frankel ليعزز هذه الملاحظات. فقد اشتهر فرانكل بكتابه "الإنسان ومعضلة معنى الحياة" Man Search for Meaning الذي أحدث انقلابا كبيرا في علم النفس خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. لما سئل هذا المفكر كيف يفسر الرواج الكبير الذي نالته أطروحاته في هذا الكتاب؟ كان جوابه: إن السؤال الذي أصبح يشغل الإنسان أكثر من أي وقت مضى والغاية التي أصبحت تحفز سلوكه ليست هي "إشباع الشهوة" كما زعمه "فرويد" ولا هي رغبة التنافس وابتغاء القوة كما أدلى به "أدلير" ولكن غايته هي الوصول إلى فهم معنى الحياة أو قل معنى الوجود الذي من حوله.[5] فإذن الإقبال الذي ناله كتابه من قبل العامة والخاصة -وإن لم يكن دليلا كافيا على صحة نظريته- يبقى بالنسبة لنا شاهدا قويًا على أن في المجتمع الغربي أو بالأحرى في قلب الإنسان الغربي حرقة يريد إطفاءها وفي جنبيه ازعاجات يبغي إزالتها.

ما دور المسلمين في الإنقاذ؟

وبعد هذه المقدمة التي بيّنت لنا تشخيص بعض مفكري الغرب الأمراض والأزمات الخُلقية والفكرية في إنسان العصر وخاصة في مجتمعاتهم يأتي سؤالنا: ما هو دور المسلمين اليوم وماذا يمكن لهم أن يقدموه تجاه هذه الأزمة الحضارية؟ وإذا فرضنا أن رسائل النور كإنتاج إيماني قرآني مرشّح من بين إنتاجات فكرية إسلامية أخرى أن تساهم في الهداية الإيمانية فما هي يا ترى مؤهلات هذه الرسائل؟

أجاب عن تساؤلنا الدكتور كولن تورنر Colin Turner الأستاذ في جامعة مانشستر بإنكلترة، والذي اهتدى إلى الإسلام سنة 1975 حيث سأل السؤال نفسه في بحثه القيم الذي ألقاه في المؤتمر الأول لبديع الزمان سعيد النورسي بإسطنبول:[6]

The Risale-i Nur: A Revolution Of Beleif

"السؤال: ماذا نستطيع نحن المسلمين أن نقدم للغرب؟

ثم يجيب عنه محللاً:

كل شيء... أو لاشيء.

فنحن نملك الإيمان والإسلام وهما كل شيء، بيد أن فهمنا وتفسيرنا للإسلام في كثير من الأحيان لا يسمن ولا يغني من جوع". ويذكر أنه في إحدى المظاهرات التي نظمتها الجالية المسلمة بلندن تقدم إليه أحدهم ليستفسره عن شعار كان يرفعه المتظاهرون، وهو شعار "لا إله إلا الله"، فأجابه "تورنر" بأن معناه "لا يوجد إله إلا الله". لكن السائل لم يقتنع بهذا الجواب الذي اعتبره مجرد ترجمة للشعار، "وعند ما تبين عجزي كان هناك صمت طويل ومحرج"،[7] الأمر الذي دفعه ليشد الرحال بحثا عن الجواب الشافي لمعنى "لا إله إلا الله". ويستطرد قائلاً:

"عادة ما يكون المهتدون متحمسين جدا لمعرفة كل ما يمكنهم معرفته حول دينهم الجديد وفي أقصر مدة ممكنة. لذا فبعد بضع سنوات من اهتدائي توسعت مكتبتي بسرعة، فقد كان هناك الكثير لأتعلمه، وكانت هناك كتب عديدة مستعدة لتعليمي... كتب حول التاريخ الإسلامي، وحول النظام الاقتصادي للإسلام، وحول مفهوم الدولة في الإسلام، وكتب وكراسات عديدة حول القوانين الإسلامية (الشريعة الإسلامية)...

رجعت إلى هذه الكتب للعثور على جواب حول السؤال: ما معنى لا إله إلاّ الله؟ ولكني أصبت بخيبة أمل... كانت هذه الكتب حول "الإسلام"... وليس حول "الله" ... كان في هذه الكتب كل ما يخطر على بال الإنسان من مواضيع... ولكن الموضوع الأهم لم يكن موجودا...

والنتيجة الحتمية لهذا هي أن التوجه نحو الغرب قد تركّز في تقديم الإسلام له كنظام سياسي وكبديل أيديولوجي، وتم هذا التقديم في الغالب دون الإشارة إلى حقائق الإيمان..."[8]

نفهم من هذا أن حاجة الغرب بل حاجة إنسان العصر إلى حقائق الإيمان وتذوق معرفة الله وراحة الاطمئنان القلبي، أكثر بكثير من حاجته إلى فهم الإسلام نظاماً اجتماعياً واقتصادياً أو ما شابه ذلك.

ويحدد الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن الوسائل الناجعة في تقديم الإسلام إلى الغرب بالقيم الروحية الخالصة والمعاملة الأخلاقية الخالصة. وذلك بعد عرضه للأخطاء التي تقع فيها بعض الفئات. فيقول: "فإذا كان خطأ (الفئة الأولى) أنها قد

قدمت للمخاطَب من الإسلام ما عند هذا المخاطَب من القِيَم، فينبغي إذن أن نقدّم للغرب من القيَم ما ليس عنده أو ما يمكن أن لا يكون عنده، حتى يشعر بالحاجة إليه. وإذا كان خطأ (الفئة الأخرى) أنها قدّمت للمخاطب جانب البأس من الإسلام، فينبغي إذن أن نقدم له من وجوه الدفع بالتي هي أحسن الموجودة في الإسلام ما ليس عنده أو لا يمكن أن يكون عنده، حتى يجد الاطمئنان إليه؛ ولا سبيل إلى إشعاره بالحاجة إلى قيَم الإسلام إلاّ متى كانت هذه القيم تُصحِّح القيم المادية التي تمسّك بها وتتعالى عليها، وليست هذه القيم إلا القيم الروحية الخالصة؛ كما أنه لا سبيل إلى جلب الاطمئنان إليه إلاّ متى كانت معاملتنا له تفضُل معاملته المنفعية لنا درجات وليس هذه المعاملة غير المنفعية إلاّ المعاملة الأخلاقية الخالصة".[9]

ما يؤهل رسائل النور لتقديم الإسلام على أفضل وجه:

بعد هذا التشخيص لحاجة الغرب أو إنسان العصر من قبل علماء نصارى من الغرب وعالمين فاضلين ومفكرين جليلين أحدهما من الغرب والآخر من الشرق. ننظر إلى رسائل النور، لنرى مدى كونها أهلاً لتقديم الإسلام إلى الغرب وإلى كل إنسان في هذا العصر. ونستهل العرض بالسؤال الآتي:

لماذا رسائل النور؟

فالجواب: لا جرم أن الإيمان والتصديق بالأمور الغيبية خاصة لا يتم أو لا تتكامل عناصرُه ولاسيما في هذا العصر بالاكتفاء بعرض النصوص وحدها، فلا يكفيه عرض الآيات الكريمة وسردها آية آية، وإيراد الأحاديث الشريفة حديثاً حديثاً من غير تنوير عقلي وإدراك إنساني متناسب مع قدراته. كما أن مدارك الإنسان وقدراته العقلية وسعة أفقه لا تكفي أساساً لبناء إيماني متين، من غير تبصير قلبي وانبعاث روحي، واستلهام وجداني من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

وبديع الزمان سعيد النورسي رجلٌ أفاض الله على قلبه من نور القرآن الكريم ما جعله يدخل عالم الإيمان والغيبيات بثبات وإقدام، في هذا العصر الذي طغت فيه قوى المادية، فأسدلت غشاوة على الأبصار والبصائر، فلم تعد ترى العقبى، وبدت الغيبيات شاحبة باهتة خافتة تنتظر من يجلوها بنور الإيمان، فما فتئ النورسي يجول ويصول في هذه الساحة متزوداً بنور الهداية الربانية، حتى وجدناه في رسائله –رسائل النور– وفي تربيته لطلابه مثالاً للمجدد المُقتدي بالرسول الكريم ﷺ، والمُقتفي خطوات الهداية في نور القرآن المبين.

ولعل العناية الإلهية شاءت أن تغرس في النورسي بصيرة نفَّاذة، وقدرة عجيبة في دمج العلوم العقلية الحديثة والعلوم النقلية الشرعية، فكأنه ينهل من منابع المعرفة وأصولها لا من فروعها؛ إذ يقدم حلولاً وإرشادات في أعقد الأمور الحياتية والإيمانية والغيبية في بلاغة رائقة وأسلوب رشيق، تأنس به العقول وتطمئن به القلوب، فتجد فيه ضالتها، ومنفذ خلاصها من دون أن يكدّر شيئاً على صفو الأفهام أو يغرقها في الفروع، وإهمال الأصول.

ولكي يكون أسلوبه ملجماً لجماح العقول وشرود القلوب، فقد أودع الله فيه قدرة على الاستشهاد بـ"الأمثلة" المقنعة القريبة من العقل والقلب معاً، ومنحه قوة المنطق الفطري والبرهان العقلي والأدلة المقنعة وإقامة الحجج القوية في معالجته الأمور الغيبية الإيمانية، لذا يجد قارئ الرسائل متعة جديدة كلَّما أعاد قراءتها، بما ينكشف أمامه من آفاق إيمانية احتجبت عنه في مطالعته الأولى.

فما مؤهلات رسائل النور ؟

في الحقيقة يمكننا أن ندرج تحت هذا العنوان مزايا كثيرة وكثيرة جداً لرسائل النور تؤهلها لتكون أنموذجاً متكاملاً لتقديم الإسلام إلى الغرب، إلاّ أننا نكتفي بالمزايا الآتية:

1- الخطاب النوري خطاب إلى الإنسان مسلما كان أم غير مسلم:

لاشك أن الخراب المادي والدمار المعنوي قد أصاب العالم أجمع، والإنسان هو المستهدف بالذات، وليس المسلم وحده. فبات من الضروري على كل من سهر على فلاح مشروعه الإصلاحي أن يخاطب كل أجناس البشر وكل طبقات المجتمع ذكورا وإناثا. فما سجله الأستاذ النورسي في الرسائل ما هو إلاّ أدوية استفادها من القرآن الكريم وجرّبها أولاً على نفسه حيث إن النفس الإنسانية واحدة في جوهرها، وواحدة في أسباب صحتها ومرضها، كالجسد تماماً . فيقول: "كُن مَن شئت، فلا نفسُك أطغى وأعصى من نفسي، ولا شيطانُك أغوى وأشقى من شيطاني".[10]

لذا نجد أن رسائل النور تسدّد خطابها نحو الإنسان وتفسح مجال الحوار، بحيث يبلغ مداه الإنساني، وتسعى لخلاصه من الكفر والإلحاد والضلال والضياع، وإيجاد الحلول لمشكلاته وهمومه الحقيقية من حيث هو إنسان، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم . فـ "تقول: كن من شئت وأبصر! وافتح عينيك فحسب وشاهد الحقيقة وانقذ إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية".[11]

2- قراءة الكون كتاب الله المفتوح

إن أكبر هدف لرسائل النور هو تصحيح العقيدة في الله، وبلوغ التوحيد الحقيقي. لأن التوحيد الحقيقي ليس مقصوراً على معرفة نابعة من "تصور"، بل هو أيضاً ما يقابل التصور في علم المنطق من "التصديق" الذي هو علمٌ، وهو نتيجة نابعة من البرهان، وهو أسمى من مجرد المعرفة التصورية بكثير. فالتوحيد الحقيقي إنما هو حكمٌ وتصديق وإذعان وقبول، بحيث يمكّن المرء من أن يهتدي إلى ربه من خلال كل شيء. ويمكّنه من أن يرى في كل شيء السبيل المنورة التي توصله إلى خالقه الكريم، فلا يمنعه شيء قط عن سكينة قلبه واطمئنانه، واستحضاره لمراقبة ربّه".[12]

أي أنّ في كل شيء ابتداء من الذرات وانتهاء إلى المجرات، نافذةً تطل على التوحيد، وفي كل منها دلائل وإشارات تدلُّ مباشرة على الواحد الأحد بصفاته الجليلة.

وسار النورسي على هذا الدرب إلى أن ذاب عقلُه في قلبه فامتزج هذا بذاك والتحمت حينذاك العلوم النقلية بالعلوم العقلية الحديثة مما أدى إلى غسل هذه الأخيرة من شوائبها وإيقاظ الأخرى من سباتها حتى أصبحت كلتاهما نوافذ مطلة على نور معرفة الله.

والأستاذ النورسي لا ينقل إلى قراء الرسائل هذه الأركان الإيمانية علوماً نظرية مجردة، أو تصورات ذهنية باردة، وإنما ينقل لهم كيانه القرآني في تجربة كونية معرفية خصبة جداً، ذائبة في القرآن الكريم، إذ يقول: "ما كتبتُ إلاّ ما شاهدتُ، بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهمي..."[13] وميزة رسائل النور هنا أنها ناجمة عن تجربة حية، لم تتوقف عند إظهار وجوه إعجاز القرآن البلاغية أو إشكالاته اللغوية وما شابه ذلك بل دخلت في الصراع الحضاري ولم تتسم في هذا المشوار بمبدأ الخصومة والرفض المتزمت لما يأتي من الثقافات الأخرى، ولم تعمل حتى بمبدأ الانتقاء كأن تأخذ علوما من الغرب تراها نافعة وترمي بالأخرى إن بدت لها ضارة. بالعكس ذهبت رسائل النور لكي يصبح كل العلوم علوما نافعة تنير السبيل إلى سعادة الدارين. وكيف تم ذلك؟

3- امتزاج العقل والقلب معاً

"إن الرسائل ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلته ونظراته، ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته... وإنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معاً وامتزاجهما، وتعاون الروح

واللطائف الأخرى، فتحلّق إلى أوج العلا وتصل إلى مراقٍ لا يصل إليها نظرُ الفلسفة المهاجمة فضلاً عن أقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيونها المطموسة".[14] لذا يوصي الأستاذ النورسي لدى قراءة الرسائل بـ "التأني والتروّي حتى يتمكن كل من العقل والقلب والروح والنفس والشعور من تناول حقائق رسائل النور التي هي في حكم الغذاء والطعام. وبخلافه فإن القراءة السريعة تجعل العقل وحده آخذاً حظه، بينما تظل الأخريات دون غذاء".[15]

فميزة رسائل النور إذن أنها ليست بالعقل المجرد الذي غلب على الفكر الفلسفي الغربي، ولا هي عقل مسدّد فحسب يكتفي بالتوجيهات النقلية مقاصدا ومنافعا، بل هي تفضي إلى العقل المؤيَّد بالنور الذي يشع من القلب الذي يستقر فيه كل يقين وبه يستزيد.[16]

4- من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة

"إن هذا العصر العجيب الذي أثقل كاهل الإنسان بالحياة الدنيوية بما كثّر عليه من متطلبات الحياة وضيّق عليه مواردَها، وحوّل حاجاته غير الضرورية إلى ضرورية بما ابتلاه من تقليد الناس بعضهم بعضاً ومن التمسك بعادات مستحكمة فيهم، حتى جعل الحياة والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الأعظم للإنسان في كل وقت. هذا العصر العجيب أسدل بهذه الأمور حجاباً دون الحياة الدينية والأخروية والأبدية، أو في الأقل جعلها أمراً ثانوياً أو ثالثياً بالنسبة له..."[17]

ولما كانت رسائل النور تستقي من فيض القرآن وتستمد من بحره وترجع إليه، وأن رُبع القرآن الكريم آيات حول الآخرة، فما يفتح القارئ رسالة إلاّ ويجد فيها ما يذكّره بالآخرة تصريحاً أو تلميحاً أو إشارة، بأمثلة واقعية من حياته اليومية، فيغدو "الكون بسر التوحيد، بمثابة مزرعة تهيئ محاصيل وفيرة جداً لعالم الآخرة ومنازلها... وبمثابة مصنع عظيم يهيئ لوازم لطبقات دار السعادة الأخروية من أعمال بشرية غنية بمحاصيلها... وبمثابة جهاز تصوير سينمائي دائب عظيم يضم مئات الألوف من أجهزة الالتقاط لالتقاط صور من الدنيا وعرضها مناظر سـرمدية لأهل عالم البقاء ولأهل الشهود في الجنة".[18]

فضلا عن أن القارئ يتعلّم من الرسائل أن الآخرة ليست منتهى الدنيا، بل هي موجودة الآن فيُرسَل إليها أعمالُه وأقوالُه في كل آن، وبهذا يتكامل حسّه الأخروي. فالآخرة لديه إيمانٌ ووجدانٌ، وشعورٌ وعاطفةٌ، وعقيدةٌ تملك عليه مشاعرَه وتفكيرَه

وتصرفاته، ويتكلم عنها باندفاع والتذاذ، ويدعو إليها بحماسة وقوة. فتكون الآخرة قريبة إليه كأنه يشاهدها مشاهدة عين وبصيرة ويعايشها معايشة حياة يومية.

5- الاستثناء لا التعميم

تستل رسائل النور الطيبين من مجموع الخبثاء، وتستنقذ الفكر الجيّد من بين الجماعات والهيئات التي أثير حولها غبار الشبهات. فعملية التحليل والفرز والاستثناء هي في مقدمة أي كلام حول موضوعات يختلط فيها النافع بالضار، والطيب بالخبيث، مما يجعل القارئ يشعر في هذا الأسلوب، التجرد الكامل والموضوعية التامة، والأخذ بالحيطة والحذر، والاحتراز من توريط مَنْ هم خارج الموضوع. فلا يلتبس أمرُ الطيب النافع بالخبيث المضر، ولا يؤخذ البريء بجريرة المتهم أو المجرم.

نورد هنا أنموذجا لنظرة رسائل النور إلى أوروبا وكيف أنها تستثني الطيب من الخبيث ولا تعمم. قال الأستاذ النورسي:

"لابد أن ننبه: إن أوروبا اثنتان.

إحداها: هي أوربا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدماتٍ لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعاتٍ وعلومٍ تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب –في هذه المحاورة– هذا القسم من أوروبا. وإنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحَسبِتْ سيئات الحضارة حسناتٍ لها، وتوهّمت مساوئها فضائل. فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة..."[19]

6- القول اللين المقنع

حيث "إن الظهور على المدنيين المثقفين إنما هو بالإقناع وليس بالضغط والإجبار. وإن تحرّي الحقيقة لا يكون إلاّ بالمحبة، بينما الخصومة تكون إزاء الوحشية والتعصب".[20] ونلمس هذا الخطاب اللطيف المقنع مثلاً في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[البقرة:4] إذ يقول:

"إن فيه إشارةً إلى تشويق أهل الكتاب على الإيمان وتأنيسهم، والتسهيل عليهم. كأنه يقول: "لا يشقنّ عليكم الدخول في هذا السلك، إذ لا تخرجون عن قشركم بالمرة بل إنما تكمّلون معتقداتكم، وتبنون على ما هو مؤسس لديكم، إذ القرآن معدِّلٌ ومكمِّلٌ في الأصول والعقائد، وجامعٌ لجميع محاسن الكتب

السابقة".[21]

وشهد شاهد من أهله

ولقد منّ المولى الكريم علينا بلقاءات ودّية وعلمية مع عدد كبير من الأساتذة الأفاضل في العديد من المؤتمرات العالمية والندوات العلمية التي قدّر الله أن نشترك فيها. فبحثنا معاً شتى الموضوعات منها ما نحن بصدده.

ولهذا فأجد من الأَولى الإنصات إلى بعضٍ منهم لنرى ماذا يقولون حول ملاءمة رسائل النور كنموذج لتقديم الإسلام إلى الغرب:

1– الأستاذ هنري استيك (سعيد إبراهيم)[22] الذي اهتدى إلى الإسلام في تركيا بداية سنة 1994 بعد اطلاعه على فكر بديع الزمان سعيد النورسي، ذكر أنه:

– يثبت وبأمثلة واقعية وأدلة لا تقبل الشك امتزاج الإيمان التام بالعلم الحديث، وتصديق الحقائق العلمية وتعزيزها للدين. (وهذه النقطة بالغة الأهمية لأن العقل الغربي يعتقد بتناقض العلم والدين استنادا إلى تاريخ المسيحية في أوروبا).

– يحدد ويشخص بدقة لا مثيل لها مساوئ الثقافة العلمانية الغربية الحديثة ومناوءة التطورات الثقافية الغربية للدين والإيمان بالله.

– كل مَن يطلع على أجوبته للأسئلة الدينية الصادرة من أشخاص يتبنون طرز الحياة العصرية لا يملك نفسه إلاّ التصديق عليها. ورغم التجديدات العديدة التي جاء بها بخصوص إثبات الإيمان فلم يحد قيد أنملة عن أحكام الكتاب المبين والسنة الشريفة.

– يكتشف بديع الزمان سعيد النورسي طرقاً وأساليب لنشاطات بُرهن قبلاً على نجاحها ويطرحها على بساط البحث مجدداً في مجال الإصلاح المعنوي للمؤمنين، خارج نطاق الطرق الصوفية.

– يضع أساليب جديدة لإحياء أمور الدين وتعزيز العالم الإسلامي والوقوف بوجه الهجمة الشرسة للعلمانية الغربية وتيار المستحدثات، بجانب قبوله الجوانب الإيجابية للحضارة والتكنولوجيا والعلوم الحديثة ".[23]

2– الدكتور أوليفر ليمان أستاذ الفلسفة في جامعة جون مورس بليفربول - المملكة المتحدة فقال:

"قدّم النورسي أفضل نوع من أدب 'الإحياء' ولا سيما في مؤلفه رسائل النور. وليست المسألة في أنه ناقش بشكل أفضل من الغزالي أو من إقبال، ولا أنه عبّر عن نفسه بلباقة ورشاقة أكثر، ولكن الذي عمله هو أنه عبّر عن نفسه بوضوح وبساطة وبطريقة تجمع بين العاطفة وبين العقل، فهو يمزج في نقاشه عند تناوله المشاكل أو المتون الإسلامية بين تصويره الشخصي وبين البراهين غير الشخصية، مما مكّنه من إيصال دعوته ورسالته إلى أوسع نطاق.

"وحركة 'الإحياء' الناجحة هي الحركة التي تقدّم المبادئ الدينية المقنعة والقوية بشكل تكون قادرة على الوصول إلى جماهير المجتمع. ولا يشك أحد في أن النورسي نجح في هذا الأمر".[24]

3– الدكتور كولن تورنر يختم بحثه القيم السابق ذكره بالنتيجة الآتية:

"بعد سنوات عديدة من البحث والمقارنة أستطيع أن أقول أن رسائل النور هي المؤلّف الإسلامي الوحيد الشامل، والذي يرى الكون كما هو في الواقع، ويقدم حقائق الإيمان كما هي، ويفسر القرآن كما أراده نبينا ρ، ويشخّص الأمراض الحقيقية الماحقة التي أُبتلي بها الإنسان، ويقدم له الدواء الناجع والشفاء.

إن مؤلَّفَا مثل رسائل النور الذي يعكس نور القرآن، ويضيء الكون... مثل هذا المؤلَّف لا يمكن تجاهله أبداً، ذلك لأن الإسلام هو وحده الحائل والحاجز بين الإنسان وبين الكارثة، وأنا اعتقد أن مستقبل الإسلام يعتمد على رسائل النور وعلى الذين يتبعونها ويستلهمون من تعليماتها ومن دروسها".[25]

4– الأستاذة الفاضلة شكران واحدة (ماري ويلد)،[26] قالت: "إن بديع الزمان برسائل النور أعطى أفضل أنموذج لتقديم الإسلام إلى الغرب وشرحه لهم، وقدم بذلك للإسلام وللقرآن خدمة لا نظير لها. ذلك لأنه بتفسيره رسالة القرآن لإنسان هذا العصر، أثبت أن الإسلام هو دين العقل الكامل وهو منبع الحضارة الحقيقية ورقي الإنسانية وتقدمها. وفي الوقت الذي يُقدَّم فيه الإسلام على أنه دين المتعصبين والرجعيين، أو كأيدلوجية سياسية أو أنه يمثل بوساطة بعض الطغاة والمجرمين، أثبت بديع الزمان أن جميع الكمالات الإنسانية ورقيها وسعادتها كامنةٌ وموجودة في الإيمان بالله، وفي التصديق بوحدانيته سبحانه، وكامنة في الإسلام الذي يمثل العبودية المطلقة والدين الأسمى".[27]

الخاتمة: المستقبل للإسلام

توشك الأزمة الإيمانية الأخلاقية المعاصرة أن تفتك بكيان الإنسان كله وتدمره نهائيا إن لم يستيقظ من غفلته أو يكسر شوكة جبروته ويعود في أقرب وقت إلى رشده. لذا فإن أحوج ما يكون إليه الإنسان في هذا الزمان هو ذلك النور الذي يبدد ظلمات الطريق ويُنَوِّرُها له، فيجد به سبيلا للخروج من الورطة التي أوقع نفسه فيها. فلا غرو إذاً أن عالم الإسلام حينئذ مدعو للمساهمة برسالة أخلاقية خالصة لا شبهة فيها ولا غبار عليها أكثر من أي شيء آخر. قال الأستاذ النورسي:

"ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً . بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام".[28] وقال أيضًا:

"إن المستقبل الذي لا حُكمَ فيه إلاّ للعقل والعلم، سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامُه إلى العقل والمنطق والبرهان".[29]

فالرسالة الإيمانية الأخلاقية تجدد صلة الإنسان بربه بعد أن كانت مقطوعة وتزكي علومه بعد أن كانت مشؤومة فتعرّفه بالكون بعد أن كان يجهله وتؤنسه بأخيه بعد أن كان ينفر منه ويبغضه ويستوحشه.

* * *

الهوامش

[1] مركز بحوث رسائل النور–اسطنبول.

[2] Paul Tillich, *The Irrelevance and Relevance of the Christian Message*. Ed, Durwood Foster, Ohio: The Pilgrim Press, 1996, p, 24-25

[3] نفس المصدر، ص 13.

[4] نفس المصدر، ص 40.

[5] انظر Viktor. E. Frankel, *Man Search for Meaning*. Eng Trans by Ilse Lasch, New York: Touchstone, ص, و 104, 110

[6] المؤتمر العالمي الأول لبديع الزمان سعيد النورسي "مكانة فكر بديع الزمان سعيد النورسي في الفكر الإسلامي". في 16/مارت/1991 بإسطنبول.

[7] ثورة الإيمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد الأول يناير2010. مؤسسة اسطنبول للثقافة والعلوم.

[8] المؤتمر العالمي الأول لبديع الزمان سعيد النورسي "مكانة فكر بديع الزمان سعيد النورسي في الفكر الإسلامي". في 16/مارت/1991 بإسطنبول.

[9] طه عبد الرحمن –حوارات من أجل المستقبل– منشورات الزمن ص118 المغرب.

[10] النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري ص 34، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول 1994.

[11] النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق، ملحق قسطموني ص 105، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول 1995.

[12] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ص 197، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول 1993.

[13] المثنوي العربي النوري ص 104.

[14] النورسي، الملاحق–ملحق قسطموني ص 105.

[15] النورسي، الملاحق–ملحق أميرداغ/1، ص 262.

[16] راجع العمل الديني وتجديد العقل، الأستاذ طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي2000 م.

[17] النورسي، الملاحق–ملحق قسطموني ص 145.

[18] النورسي، الشعاعات ص 15.

[19] النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ص 176، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول 1993..

[20] النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية العرفية – ص 446 ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول 1995.

[21] النورسي، بديع الزمان سعيد، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 59، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول 1994.

[22] ولد في سنة 1953 في امستردام عاصمة هولندا. يتقن الإنكليزية والفرنسية والألمانية فضلاً عن الهولندية. يعمل الآن في شركة شل بإنكلترا بمهمة منسق التمويل.

[23] سعيد إبراهيم (هنري استيك) المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي، "تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي" في 24–26/أيلول/1995 بإسطنبول.

24 المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي "نحو فهم عصري للقرآن الكريم–رسائل النور أنموذجاً" في 20–22 أيلول 1998 بإسطنبول.

25 ثورة الإيمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد الأول يناير2010. مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

26 شكران واحدة "ماري ويلد" باحثة وكاتبة: ولدت عام 1948 في مدينة لانكشاير في انكلترة. تخرجت سنة 1980 من قسم الأدب التركي والفارسي في كلية الاستشراق/جامعة دورهام. اهتدت إلى الإسلام سنة 1981 بعد أن قرأت رسائل النور واتخذت اسم "شكران واحدة" وتقيم حالياً في تركيا حيث تُعدّ بحوثاً حول رسائل النور، وترجمة كليات رسائل النور إلى الإنكليزية .

27 المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي في 24/أيلول/1995 بإسطنبول.

28 النورسي، صيقل الإسلام–الخطبة الشامية ص 494.

29 النورسي، صيقل الإسلام–الخطبة الشامية ص 495.